كلمة الدكتور محمد محفل
في حفل استقباله

السيد الأستاذ الدكتور مروان المحاسني، رئيس مجمع اللغة العربية،

السيدات والسادة أعضاء المجمع،

سيداتي، سادتي

في عام ١٩٤٩، أي قبل ستين سنةً، وبعد حصولي على شهادة أهلية التعليم الثانوي (الباكالورية الموحَّدة)، انتسبت إلى المعهد العالي للمعلمين، وكلية الآداب (قسم التاريخ) في الجامعة السورية (جامعة دمشق اليوم)، بعد الامتحان التحريري والمقابلة الشفهية. وأتذكَّر من أعضاء اللجنة أساتذةً تبوَّأ بعضُهم مقعدَه لاحقًا في مجالسِ مجمعكم الموقَّر: جميل صليبا، كامل عيّاد، حكمت هاشم، أمجد طرابلسي.. كانوا مع غيرهم من العلماء الأفاضل، أساتذتنا في المعهد العالي للمعلمين وكلية الآداب... وقد ضمَّ برنامج السنة الأولى (الثقافة العامة) طُلابَ مختلِف أقسام الفرع الأدبي، وكان المرحوم زميلكم الدكتور عبد الكريم اليافي، أحد أساتذتنا، لتلك السنة من حياتنا الجامعية، حيث حضرنا دروسه في مادتي: «علم الاجتماع» وعلم إحصاء السكان «الديمغرافية البشرية»... وكما عرفتموه، سيداتي، سادتي، كان محطّ الأنظار، بعلمه ودماثة خُلْقه وصفاء سريرته... كان إنسانًا في منتهى البساطة معنا، مع طلابٍ أغرار... أحاطنا برعايته ويسّر لنا السبيل.. شَدَّ أزرنا... أزر طلاب محافظاتٍ...

هجروا أهلهم... حيارى أمام رهبةِ الحرم الجامعي... فأحببناه... ثمَّة أمورٌ لا ينساها المرء... هاهي ستة عقودٍ قد مضت... فعندما اطلعت على جدول أسماء أعضاء المجمع الراحلين، الذين لم تُشغل أماكنهم، لم أتردّد في أمر اختيار اسم أستاذي... رصيفكم المرحوم الدكتور عبد الكريم اليافي... نعم! لعلَّكم تُدركون مغزى اصطفائي.. ثمَّ من واجب طالب العلم، أن يعترف بجميل شيوخه، الذين أحسنوا إليه بنور علمهم وسراج معرفتهم... رحم الله شيوخنا.

خلال وجودي في أوربة للدراسة سُعِدْتُ بلقاء الدكتور اليافي، مرةً في باريس، وبعد ذلك في جنيف، يرافقه الدكتور بدر الدين القاسم حيث قَدِما للمشاركة في «ندوة الأدب المقارن»، وذلك في خريف عام ١٩٦٥م.

كنت محظوظًا بمرافقة الأستاذ، في رحلتنا الأسبوعية، كأساتذةٍ زائرين، لإلقاء محاضراتٍ في الجامعة الأردنية، عِدَّةِ سنواتٍ (١٩٦٩- ١٩٧٢) مع زملاءٍ آخرين، في عدادهم الأستاذ الدكتو عادل عَوّا وزميلي الدكتور عبد الكريم رافق.

بالأمس القريب، كانت مناسبة تأبين الدكتور عبد الكريم اليافي، وقد أشاد بذكراه أعضاء لجنة الحفل، وحَسبُنا جميل ثنائهم ومديحهم وأستاذنا هو الكوكب الساطع في سماء ثقافتنا العربية الحديثة والمعاصرة، وهو العلاّمة الموسوعي بمعارفه الوافرة - المتنوعة -، وفكرِهِ الشمولي وأسلوبه الأدبي الرفيع واجتهاداته اللغوية...

وُلِد أستاذنا (أبو محمد) في مدينة (حمص — أمّ الحجار السود) عام ١٩١٩م، حيث تلقّى تعليمه الديني واللغوي على أيدي أئمتها، قبل حصوله على الشهادة الثانوية (فرع الرياضيات)، والتحق بكلية الطب في الجامعة السورية سنتين، ليسافر بعد ذلك إلى فرنسة موفدًا ضمن بعثةٍ دراسية... وتجلّى نبوغه في الدراسات العليا بحصوله على شهاداتٍ في الفلسفة والمنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الجمال والفن والعلوم الرياضية والطبيعية ثم الدكتوراه في الفلسفة. وبعد نهاية الحرب الكونية الثانية،

عاد إلى سورية ليدرِّس في ثانويات حمص، ثم في كلية الآداب (قسم الفلسفة)... كان متواضعًا تواضُع العلماء، زاهدًا في المناصب الإدارية، عاكفًا على التدريس الجامعي والبحث العلمي..

ومن أعماله:

١- الفيزياء الحديثة والفلسفة.

٢- علمُ السُّكان.

٣- المعجم الديمغرافي (متعدد اللغات).

٤- المجتمع العربي ومقاييس السكان.

٥- دراسات فنية في الأدب العربي.

٦- تمهيد في علم الاجتماع.

٧- الشموع والقناديل في الشعر العربي.

٨- جدلية أبي تمّام. إلخ.

إضافةً إلى عدّة معاجم، متعددة اللغات.

وكان قِرْنكم عضوًا في عدة مؤسسات علمية، اعتبارًا من سنة ١٩٥٢، ومنها:

- عضو المعهد العالمي لعلم الاجتماع.
- الاتحاد العالمي للدراسات العلمية للسكان.
- المجلس الأعلى لرعاية العلوم والآداب والفنون.
- عضو معهد العلوم الجنائية والاجتماعية في القاهرة.
- عضو مؤسس لاتحاد الكتَّاب العرب.
- عضو مراسل في مجمع اللغة العربية في بغداد.
- رئيس تحرير مجلة التراث العربي.
- رئيس تحرير معجم العماد الموسوعي ... إلخ.

وقد منحه السيد الدكتور بشار الأسد، رئيس الجمهورية وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة.

رحم الله الدكتور عبد الكريم اليافي وبعثه مقامًا محمودًا، فهو معلمنا وأستاذ أجيالٍ من الطلاب الأبرار في شتّى أمصار الوطن العربي.

من تقاليد مجمعكم الموقّر، أن يلتزم الخلفُ بموضوع سيرة سلفه، ولعلنا لا نخالف النَهْجَ في إشارتنا إلى إشكالٍ اشتقاقي لغوي شغل بال أستاذنا... عندما عالجت بعض عناوين (معجم العماد)، ترجمةً وتأليفًا وتحقيقًا وكان أستاذُنا - كما جاء آنفًا رئيس التحرير، وذلك قبل ربع قرنٍ تقريبًا... كان هاجسُه إضافةً إلى الدخيل، أصولَ بعض الأسماء والكلمات الأجنبية وكم من مرةٍ، سرد بعضها، باحثًا عن أصل أرومتها... وكنتُ قد أوليتُ هذا الموضوع اهتمامًا ولا سيّما بعضُ الأسماءِ والكلمات اليونانية - اللاتينية والأوربية الغربية في مظانِها الكنعانية - الآرامية، وذلك حتى القرن الرابع (ق.م).

أما منذ عهد الإسكندر والعصر الهلنستي، سنة (٣٣٣- و٣١ق.م)، فقد حدث العكس، حيث راحت تدخُلُ بعض الأسماء والكلمات اليونانية إلى موروثنا اللغوي المشرقي، قبل الدخيل في العصر العبّاسي... وفي العصور: الهلنستي اليوناني والروماني اللاتيني فالبيزنطي الإغريقي، قامت ثلاثُ مدنٍ أثرية بدورٍ بارز في عملية التبادل اللغوي اليوناني - المشرقي:

١- بترا، (سِلع) في بلاد الأنباط.

٢- الحَضَر، (هَتْرا) شمالي الرافدين.

٣- تدمر، في بادية الشام.

نحن نعلم أن اللغة الآرامية، خاتمة لغاتنا المشرقية القديمة، وأقربها إلى العربية الفصحى، قد شاع تداولها في الوطن العربي، منذ القرن (٦ ق.م) عندما غدت لغة الدواوين الرسمية بجانب الفارسية القديمة، في سائر أرجاء الإمبراطورية الفارسية الأخمينية سنة (٥٥٩- ٣٣١ ق.م)، من أفغانستان وحتى ليبية واسم (جبل طورا بورا) الذي تردَّد ذكره في السنوات الأخيرة هو آرامي الجذر، ولا يعني سوى (الجبل البور/ البائر

الأجرد) والألف الملحقة في آخر الكلمتين هي أداة تعريف للمذكر المفرد. كان للآرامية الغلبةُ، لغةً وكتابةً، على «اللهجات/ اللغات» المشرقية القديمة، لعدّة أسباب منها سهولةُ الكتابة الأبجدية، التي اقتبس الآراميون شكل حروفها من أبناء عمومتهم الكنعانيين، في عصر الحديد الأول (١١٠٠- ٧٠٠ ق.م)، وراحت تلك الأبجدية بسهولة كتابتها تنافس الكتابة المقطعية المسمارية قبل زوال هذه الأخيرة في القرن الأول (للميلاد)، مع التلاشي التدريجي للألْسُن القديمة: بابلي- آشوري لمصلحة اللغة الآرامية... كان هذا التحوّل جليًّا واضحًا في بلاد الرافدين والشام... أما غربي الأنهر الثلاثة: العاصي، والليطاني، والأردن، فقد ظلّت الغلبةُ للكنعانية... التي عرفها الإغريق وأطلقوا على أهلها اسم «الفينيقيين»، وهو اسمٌ دخيل، لم نُدركه في وثائقنا القديمة السابقة للعربية الفصحى... ولا من بعدها. وها هو (ابن منظور محمد بن مُكرَّم ١٢٣٢- ١٣١١م) يُدهشنا، بل يفاجئنا في (اللسان)، ففي مادة (فَنَقَ) لا يذكر أيَّ جماعة أو شعبٍ باسم (فينيقي) أو لغةً (فينيقية)، وعندما نأتي إلى مادة (كَنَعَ)، نقرأ ما يلي: «... كَنَعَ النَّجْمُ أي مال للغروب، وكنعان بن سام بن نُوح إليه يُنسب الكنعانيون، وكانوا أُمَّةً يتكلمون بلغةٍ تضارع العربية».

وفي اللسان أيضًا (ضَرَعَ): «... والمضارعة المشابهة والمقاربة...».

من يقرأ العهد القديم يظُنُّ أن بلاد كنعان تقع حصرًا في فلسطين ولا علاقة لها بسائر أنحاء بلاد الشام الغربية، وتعني البلاد الخاضعة (كَنَعَ: خَنَع). وسَلَّمَ بهذا الزعم بعض المؤرخين الغربيين والعرب المعاصرين وهذا باطلٌ... نحن نعلمُ اليوم، بعد الدراسات الجغرافية — اللغوية المقارنة، أنَّ أهلَ الرافدين أطلقوا على بلاد الشام ثلاثة أسماءٍ، بمعنى بلاد الغرب (غروب الشمس)، وهي:

مارتو، بالسومرية. أمورو: بالأكدية. وكنعان، بالبابلية.

نقل الهلنيّون عن الكنعانيين، ويعترف بذلك بعض مؤرخيهم وفي مقدمتهم

هرودوتوس: الأبجديةَ وأساطيرَ خلق الكون والحياة والبُلدانية الجغرافية وغيرها... فما هو مثلاً أصل اسم كلمة طروادة/ إيليون التي اشتقّ منها هومروس اسم مَلْحَمَتِه «الإيلياذة» وجاء في الروايات أن الأمير الكنعاني/ الفينيقي قدموس نقل أبجدية قومِه إلى بلاد اليونان... وكتبوا اسمه بحرف (ك k) عوضًا عن (ق q)، بعد أن أهملوا استعمال هذا الحرف الأخير في أبجديتهم... وعديدة هي المفردات المشتقة من اسم قدموس في المعجم اليوناني ولدينا أيضًا في اليونانية القديمة كلمة kados كادوس/ قادوس... ولهذه الكلمة صلة بجذر (قدشي الكنعاني — الآرامي).. ولمختلف مشتقات هذا الجذر صلةٌ... بالماء وبقدسيته... لدينا أسماء مدن وبلدات: قادش/ قاديشا/ قدشيا إلخ... وكلّها مواقعُ قريبة من نهرٍ أو نبع ماءٍ أو بحرٍ إلخ... ونقول في عربيتنا: «القُدْس» حجرٌ يُرْمى في البئر ليُعْلَمَ أكثيرٌ ماؤه أم قليل؛ القُدُس/ القُدَس: قدحٌ صغير؛ القادس: السفينة الكبيرة؛ القادوس: إناء يخرج به الماء من الآبار أو السواقي... وظنّ بعضهم أنه دخيل... وهذا وهمٌ.

أما بالنسبة للرومان، فما هو أصل اسم عاصمتهم روما؟ وما مغزى هذه الألف في آخر الاسم؟! ... ألم يقولوا أن أصل بناء روما يعود للاتروسكيين المشرقيين... وأضافوا أيضًا أنها العالية، المبنية على ٧ تلال... ؟!

أما في العصر الوسيط، فما هو دور عرب الأندلس وصقلية في ظهور أداة التعريف (AL/ ال العربية)، في اللغات الثلاث: الفرنسية والإسبانية والإيطالية، علمًا أن اللغات الثلاث هي لاتينية الأصل، وأداةُ التعريف التي ظهرت في اللغات الثلاث اعتبارًا من القرن العاشر لا نجدها في اللاتينية القديمة، حيث نهايات التصاريف الخمسة اللاتينية هي التي تُبَيّنُ حالات النحو والصرف والإعراب... ومن يقرأ نصًّا من فرنسية القرون الوسطى (القرن ١٠- ١٤) يقع على أداة تعريف وحيدة (LA/ Li)، تذكرنا بما نسمعه اليوم في المغرب الأقصى: لَخْضر (الأخضر) لِوادي (الوادي) إلخ.. ولنا عودة إلى ذلك..

إن عربيتنا الفصحى هي اللغة الوحيدة، خلافًا لسائر لغات المعمورة، التي

حافظت على عبقريتها في الصرف والنحو، مع تعديل وتجديد بسيط في معجمها، وهي سُنّة الكون والحياة الاجتماعية .

لم يُفلح مَن طرح مشروع تجديدها اللغوي انطلاقًا من منطقٍ، صالحٍ لبعض اللغات الأوربية وغير الأوربية... نحن لا نُنْكر الحاجة إلى ذلك التجديد.. وعلى علمائها وأهلها أن يدرسوا أحوالها ويُبدعوا ويبتكروا وسائلَ صالحةً لدراستها وتدريسها.

ما جاء آنفًا وغيرُ ذلك كان موضوع حديث ومناقشة واستفسار بين قِرنكم: الأستاذ وطالبه.. وأعترف اليوم أن الأمر لم يكن سهلاً دائمًا، وبخاصةٍ في حالات أسماءٍ وكلماتٍ دخيلة على لِفاظتِنا المشرقية: كنعانية/ آرامية/ عربية فصحى، في عصر الحديد الأول، ومن بعدِه، وعندما أوضحت منهج بحثي المعجميّ، استيسر الأمر..

جاء الأستاذ ذات مرةٍ يستفسرني عن أصل كلمة «آغُورا ἀγορά» اليونانية، وقد تناهى إلى سمعه أنها مشرقية الأرومة، في رأي البعض، وكنت في مكتب الأستاذ عاصم البيطار، في دار (معجم العماد)، والمساهم في التحرير... فقلت، يا سيدي، سمعتُ هذا الزعمَ... وهو وهمٌ... وأضفتُ، لا جذرَ للكلمة في معاجمنا المشرقية، ونجدها في الوثائق اليونانية منذ عصر هومروس، ولها معانٍ مختلفة ومشتقاتٌ عديدة: مجلس الشعب، الساحة العامة، بضائع، بيع بالمزاد العلني إلخ... فقال: سبحان الله وأضاف مبتسمًا، سمعتهم يقولون إنها من أرومة (الجورة) العربية...

بصفتي أمين سر (لجنة كتابة تاريخ العرب) ورئيس تحرير مجلة **(دراسات تاريخية)**، ساهمتُ مع المركز الثقافي الإسباني في دمشق في تنظيم جلسات (ندوةٍ دولية) بتاريخ (١١– ١٣ تشرين الثاني لعام ٢٠٠٠م)، في رحاب جامعة دمشق، بعنوان «**التفاعل بين الحضارة العربية– الإسلامية والحضارة الغربية والدور الإسباني**» وكان زميلكم عضوًا فخريًّا في لجنتنا، وعرضتُ في الجلسة الرابعة دراسةً لغوية – تاريخية لثلاثة أسماءٍ ورد ذكرها في المصادر الكلاسيكية اليونانية واللاتينية، (القرن

الأول وحتى القرن الرابع للميلاد) وفيما بعد في نصوص فرنسية القرون الوسطى من القرن الحادي عشر وحتى القرن الرابع عشر للميلاد، ولغة تلك النصوص تختلف اختلافًا بيِّنًا عن اللغة الفرنسية التالية، كما عَهدناها بعد عصر (كوكبة الثُريّا LA PLĖIADE) بل بدءًا من CLÉMENT MAROT (١٤٩٧- ١٥٤٤) في عهدي الملكين: لويس الثاني عشر وفرنسوا الأول. وتلك الفرنسية خالية من النَبْرات accents (,/' / ^) ومن الصعب على جاهل اللغة اللاتينية أن يفهمها. وفي تلك النصوص ورد ذكر ثلاثة أسماء تقدح في حق العرب والمسلمين وهي:

SARRAENUS / Σapakηvos MAURES BARBARUS/ BapbapoŚ

ولتلك النصوص الآتية فيما يلي علاقة صريحة وصلات وثيقة بعالم الأندلس، ونجد فيها بواكير أدوات التعريف (LES/ LA/ LE) الفرنسية و(AL) الإسبانية/ الإيطالية، التي تُذكِّرنا بـ (بحرف «ل» في أل التعريف القمرية).

وأول نصٍ من القرن الحادي عشر، أنشودة رولاند LA CHANSON DE ROLAND. من مشاهير قواد الإمبراطور (Carlos Magnus) كارلوس ماجنوس الشهير بشارلمان، وقد لقي حتفه في شِعْب رونسوفو RONCEVALLES في عام ٧٧٨م، على يد البشكنش الإيبريين الشماليين... ونجد في البيت الأول ذكر مضائق جبال البرنس المتاخمة لجنوب فرنسة وشمال إسبانية (إيبرية)... ومع أن البشكنش هم الذين قتلوا قائد شارلمان رولاند (رولان) نرى كاتب/ كُتَّاب الأنشودة يلصقون التهمة بـ SARRAZINS عرب الأندلس. ونجد في أحد الأبيات مقطعًا طريفًا: CO DIT LI REIS/ عندئذٍ قال الملك REIS (رِيْس/ رَيّس/ رئيس) علمًا أن الملك في اللاتينية هو REX. وفي البيت التالي نجد اسم القائد NAIME/ نايْم/ نعيم.

ونجد أيضًا أداة التعريف (لِ Li) أمام المفرد.

والجمع: «Li EMPEREDRE/ الإمبراطور» للمفرد وللجمع: «Li FRANCEIS / الفرنسيون».

والوثيقة الثانية من القرن الثاني عشر بعنوان ALISCANS وتروي حكاية أمير NARBONNE (اربونا العربية)، في القرن الثامن للميلاد، وتقع في جنوب فرنسة، حصّنها العرب وجعلوها مستودعًا للسلاح ومُعدّات الحرب، ظلوا فيها حتى عام ٧٥٩م، أي مدة سبع وعشرين سنة بعد معركة (بواتية/ بَلاط الشهداء) ٧٣٢م/ ١١٤هـ. ونجد أيضًا ذكر SARRAZINS مقرونًا هذه المرة بصفة وثني/ PAIENS... وما يهمنا هنا أداة التعريف (لِ Li)، إذ بدأنا نرى أداة تعريف للمؤنث (LA TESTE/ الرأس) مع بقاء «Li»، للمذكر المفرد والجمع.

والوثيقة الثالثة Le Roman de La Rose ونترجمها بـ «سردية الوردة» من القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، وهي قصيدة رمزية شارك في وضعها عدة كُتّاب وترمز الوردة إلى حسناء الأحلام... وقد قَبِلَ الدكتور اليافي تعبير «رَوْمني ROMAN» إشارةً إلى أدبٍ وفن نحت وعمارة أوربة الغربية اللاتينية، (من القرن ١١ وحتى القرن ١٤)، وذلك في كتاباتي لمعجم العماد. في هذه الوثيقة، تتأكد أداة التعريف المؤنث «LA» مع بقاء «Li» للمذكر المفرد والجمع... ولا تظهر أدوات التعريف المختلفة (/LES/ LA LE) إلا مع بداية القرن الخامس عشر في شعر الشاعر الصعلوك (François Villon) «١٤٣١- ١٤٨٠؟»... ولا نجد النَبَرَات accents في شعرClèment MAROT (١٤٩٧- ١٥٤٤)، ولم تبدأ بالظهور إلا في كتابات Pierre de RONSARD ١٥٢٤/ ١٥٨٥ قطب (كوكبة الثريا).

لا مجال اليوم للبحث في كيفية انتقال أل التعريف العربية إلى لغات أوربة الغربية اللاتينية، ونظنّ أن غياب نُطق اللام الشمسية قد أوقع المستمعين الغربيين في حيرةٍ، والتبس على أولئك الغرباء أمر النكرة والمعرفة، فراح العرب يلفظون اللام الشمسية، فكان ذلك مفتاح العملية... وكل شيءٍ في وقته... ولنا عودة إلى اجتهادنا في دراسةٍ لاحقة.

وبعد سنتين، شاركت في ندوة (ابن حزم الدولية) في جامعة حلب (٢/ ٤ شباط ٢٠٠٢)، وكان موضوع دراستي، كتاب (**الفَصْلَ في المِلل والأهواء والنُحَل**) وسمعنا بعضهم يقول «الفِصَل»... ولكن ما جاء في كتاب ابن حزم بأجزائه الخمسة يفيد معنى «الفَصْل» بين الحق والباطل ولا يفيد معنى «الفِصَل» (جمع فَصْلَة) بمعنى «ملازم أو أمالٍ» كما نقول اليوم. وكانت مساجلة بهذا الشأن مع الأستاذ الدكتور محمود علي مكي... وعندما قلت إن ابن حزم على سعة معارفه، لم يكن كأبي الريحان البيروني، الذي كان على علم باللغات القديمة كالسريانية واليونانية واللاتينية إلخ. ولذلك أخطأ في كتابة أسماء الحواريين وغيرهم... وهنا قال الدكتور مكي: بل كان ابن حزم يعرف اللاتينية، وهنا كانت مداخلة الأساتذة الإسبان الذين أكدوا عكس ذلك... ولم يميّز ابن حزم أيضًا بين العبرية والآرامية إلخ.

كما نعلم، كان أستاذنا أبو محمد مهتمًّا بسيرة ابن حزم ومذهبه الظاهري وهو الذي كان يردّد قولهم «إن لسان ابن حزم أكثر تأثيرًا من سيف الحجاج» ... وصلت إلى مسامعه أصداء ندوة حلب وقال لي مازحًا: إن هواء حلب قد أنعشك كثيرًا... رحمك الله أيها المعلم!

سيداتي، سادتي،

إن ما لاحظناه عند ابن حزم هو غيض من فيض ما نجده من أخطاءٍ لغوية – جغرافية – تاريخية في مصادرنا العربية القديمة والحديثة والمعاصرة.. ومن هنا جاءت دراستنا «العربية: لغةً وكتابةً، المنشورة في مجلة (التراث العربي)»، عدد خاص مزدوج، اللغة العربية واللغات الأخرى: العددان واحد وسبعون واثنان وسبعون، ربيع الأول ١٤١٨هـ/ تموز ١٩٩٨م، وتضمُّ الدراسة ٣ أقسام:

١- اللغة.

٢- الكتابة

٣- جداول أبجديات مقارنة.

وها هو ملخص القسم الأول اللغوي:

أولاً- التشابه الكبير بين مختلف لهجات أسلافنا القدامى في بلاد الرافدين والشام وحوض النيل وشبه الجزيرة العربية والشمال الإفريقي القرطاجي والأمازيغي.

ثانيًا- اللهجات العتيقة: أكَدية، بابلية، آشورية، هي العتبات الأولى في السُلَّم اللغوي للوطن العربي، ولا تُعتبر هذه اللهجات لغاتٍ قائمة بذاتها، وقد غَمُض أمر ألسنتها على المستشرقين، فأطلقوا على الرافدية منها اسم «الآشوريات» واليوم يقولون «الأكَديّات» وفي الواقع، فلا هذه التسمية ولا تلك هي منطقية، فهي لا تشير إلى عرقٍ/ جنسٍ معيَّن، قائم بذاته، بل هي نسبة إلى مدينةٍ، (أكَد/ بابل إلخ) أو ناحية جغرافية (كنعان/ بلاد الغروب) إلخ..

ثالثًا- التسمية السامية، التي أطلقها شلوتس غير منطقية ومخالفة للخطاب العلمي وتُلحق الأذى بقضايانا القومية وهي باطلة مُضِلة، هدفها -كما يقولون اليوم- الدعاية بل الدعوة إلى «لغةٍ عبرية قديمة» وفي الواقع، لا توجد لغةٌ عبرية قديمة، في العصر التناخي، (من الأصول وحتى تدمير الهيكل الثاني)، على يد تيتوس عام ٧٠م. ولم يأتِ ذكر لغةٍ عبرية في العهد القديم بل «شَفِةُ كنعان» و«لغة يهودية». ولغة العهد القديم هي إحدى اللهجات الكنعانية، إضافة إلى مقاطع وفقراتٍ آرامية (سفر دانيال، عزرا، نحميا). ولم تظهر «التسمية العبرية إلا بعد السيد المسيح، فمن ظلّ على يهوديته نطق بـ «العبرية» والذي تنصّر تكلّم الآرامية فالسوريانية، ولغة (إنجيل متّى) هي الآرامية، وليست العبرية كما ظنّ ابن حزم في «الفَصْل...»

رابعًا- عدم حصر مجال نشوء وتطوّر اللهجات العربية القديمة في شبه الجزيرة العربية بل مدِّ حدوده ليشمل بلاد الرافدين والشام ووادي النيل، حيث أدَّت اللهجة الآرامية دورها الأكبر في صيانة تراثنا اللغوي القديم، قبل البعثة النبوية، تلك الآرامية

التي احتلت مع لهجات اليمن العتبات الوسطى في السُلّم اللغوي لوطننا العربي، خلال اثني عشر قرنًا، من القرن السادس (ق.م) وحتى صدر الإسلام. قبل أن تَحُلَّ محلَّها العربية الفصحى، التي شغلت آنذاك أعلى عتبات ذلك السُلَّم اللغوي.

خامسًا- جاء التنزيل الحكيم بلسانٍ « عربي مُبين » ولم يأتِ بلهجة قريش، كما ظن بعضهم. يقول الأستاذ سعيد الأفغاني في مقدمته لكتاب «حُجَّةُ القراءات» للإمام أبي زُرْعة «لم يكن كتبةُ الوحي الذين كان النبي ﷺ يُمْلي عليهم كلما أُوحِيَ إليه شيءٌ، من قبيلةٍ واحدة، بل كانوا من قبائل عِدّة، إضافةً إلى أهل قريش. وكان الناس على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم في سعةٍ من أمرهم في قراءة القرآن، كلٌّ يقرؤه بلحن قومه، واندرجت هذه الوجوه الكثيرة في تعبير الأحرف السبعة وأُريد بها التعدد والكثرة.

سادسًا- الصحيح والأقرب إلى منطق التطوّر الاجتماعي - اللغوي أن نهجر التسمية السامية لمصلحة «العربيات العتيقة ثم القديمة فالعربية الفصحى»، ثمّة لغاتٌ ذائعة الصيت لم يتهيأ لها من ديمومة زمنية واستقرارٍ في المكان، ومع ذلك لم يتردّد أهلُها في أمرهم. أما اللهجاتُ العربية العتيقة، فنعني بها لهجات بلاد الشام والرافدين والمِصْرية الفرعونية حتى مطلع الألف الأول (ق.م)... ثُمَّ القديمة وهي الآرامية الأولى، ثم فروعُها المختلفة بعد القرن ٢ ق.م. مع لهجات اليمن (معين، سبأ، حمير) بقلمها المسند (٨٠٠ ق.م - ٥٠٠م) مع اللهجات اللحيانية والثمودية والصفائية، في وسط وشمال شبه الجزيرة العربية وحتى جنوب بلاد الشام، (٥٠٠ ق.م - ٣٥٠م) فالعربية الفصحى، مع الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، حتى اليوم.

قد يستغرب البعضُ برنامجنا هذا، وعلى كلٍ كما قالوا (كل جديد غريب)... أما بالنسبة لنا، فليس بجديدٍ ولا بغريب... فمنذ أربعة عقودٍ، كتبنا في المقدمة التاريخية لكتابنا الجامعي، **المَدْخَل إلى اللغة الآرامية**، في الطبعة الأولى ١٩٧٠، «التسميةُ

السامية خاطئة، وعلى الباحثين وذوي الاختصاص العرب أن يطرحوا الموضوع على بساط البحث ويتداولوا الآراء ليَصِلوا إلى تسميةٍ أخرى أقرب إلى منطق الأمور..»

ما جئنا به ليس خطابًا بيزنطيًّا بل برنامجُ عملٍ علمي، بدأنا نتلمّسُ معالمه منذ بداية تدريسنا الجامعي وبحثنا اللغوي المقارن عام ١٩٦٧، ونرى أنه الردُّ المناسب على مدرسة الاستشراق، منذ حملة نابليون بونابرت وحتى اليوم... فبعد كلِّ كشف أثري يبادرون إلى ابتداع اسم لغةٍ جديدة. وبعد العثور على رُقُم إبلا/ تل مرديخ، جاؤونا بنغمة الإبلائية، فأبدينا تحفّظاتنا واقترحنا البديل الكنعاني الباكر وأعلناه في الندوات والمؤتمرات المحلية والدولية...

أيها الحفل الكريم،

يقول البعض إننا الورثة الشرعيون لتلك الحضارات المشرقية القديمة وهذا صحيح... ويضيف فريقٌ آخر أن أسلافنا العرب المسلمين لم يفتحوا بلادًا أجنبية غريبة، بل حرّروها من نير الاحتلال الفارسي والبيزنطي، وهذا أيضًا أمرٌ لا يقبل المنازعة، ويتفاخر آخرون برسالة الإسلام السمحة، وبشعار «لا إكراه في الدين» وهذه فكرةٌ صائبة... نعم، كلُّ ذلك لا غُبار عليه... ولكن كيف نفسّر هذا الإهمال الصارخ لتاريخ الوطن العربي منذ فجر الكتابة وحتى صدر الإسلام؟!... فإن كان لقدماء أسلافنا عُذرُهم ألا وهو جهلُ إرثنا اللغوي القديم، لأسبابٍ ذاتية وموضوعية، مما جعلهم فريسةَ أوهام «الإسرائيليات»، فكيف نُعَلِّل حال باحثينا المعاصرين بعد هذا الكشف الكبير، الذي أعطانا مئاتِ الألوف من رُقُم متعددة اللهجات؟!

من الغريب أن تظهر التسمية العبرانية لدى ابن حزم مثلاً... ومن بعده عند ابن خلدون وغيرهما؟! علمًا أن التنزيل الحكيم لم يأتِ على ذكر عبرانيين أو لغة عبرانية... بل يشير إلى قوم موسى كالآتي: «٤٤ مرة» بنو إسرائيل، «٨ مرات» هود/ هودًا، «٨ مرّات يهود». فهل هي أيضًا من الإسرائيليات؟!

لقد تقاعسنا وألقينا المسؤولية على كاهل المستشرقين... فمنهم من أدّى المهمة بأمانة ونحن لا ننكر فضلهم... ولكن البعض الآخر أساءَ وأشهر سيفه السامّ... وأصبحنا غرباءَ في بلادنا... وراحوا يعيثون فسادًا حتى بتراثنا العلمي العربي الإسلامي... فالفضل في الأندلس وتراثه ليس للعرب أو المسلمين بل لإسبانٍ أصلاء تعرّبوا أو أسلموا... والفارابي هو تركي وابن سينا فارسي أو من بلاد ما وراء النهر... وهكذا مع البيروني وسواه... أما البيروني فيلعنهم في قبره وموقفه من العرب والعربية معروف. إن العصر الوسيط ليس عصر قوميّات، بل عصر حضارات... فالعالم العربي الإسلامي وشرقًا الهند فالصين وبمحاذاته شمالاً وغربًا العالم البيزنطي... فالعالم اللاتيني والأنجلو - ساكسوني... إن كلَّ امرئ عاش وأبدع في ظل الدولة العربية الإسلامية وكتب باللغة العربية هو عربيٌّ.. وصَدَق من قال:

«إن العروبة في السُلالة للحصان، والعروبةُ في الرسالة واللسان للإنسان».

شكرًا لإصغائكم والسلام عليكم